الباب الحادي والخمسون: في ذكر الغنى وحبّ المال والافتخار بجمعه

قال الله تعالى: ﴿المالُ والبنونَ زينةُ الحياةِ الدُّنيا﴾[١] وقيل: الفقر رأس كل بلاء، وداعية إلى مقت الناس وهو ع ذلك مسلبة للمروءة مذهبة للحياء، فمتى نزل الفقر بالرجل لم يجد بدّاً من ترك الحياء، ومَنْ فَقَدَ حياءه فقد ِوءته، ومَنْ فَقَدَ مروءته مقت، ومَنْ مقت ازدري به، ومَنْ صار كذلك كان كلامه عليه لا له. وقال رسول الله ﷺ: نك إن تذر[٢] ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس». وفي الحديث: «لا خيرَ فيمن لا يحب المال صل به رحمه، ويؤدي به أمانته، ويستغني به عن خلق ربه». وقال علي كرّم الله تعالى وجهه: الفقر الموت الأكبر، قد استعاذ رسول الله ﷺ من الكفر والفقر وعذاب القبر. وقيل مَنْ حفظ دنياه حفظ الأكرمين: دينه وعرضه. وقال شاعر:

لا تَلُمنــــي إذا وقيــــت الأواقــــي[٣] ... بــــالأواقــــي لمــــاء وجهــــي واقــــي

وقال لقمان لابنه: يا بنيّ أكلت الحنظل وذقت الصبر فلم أر شيئاً أمّر من الفقر فإن افتقرت فلا تحدّث به الناس بلا ينتقصوك، ولكن أسأل الله تعالى من فضله، فمن ذا الذي سأل الله فلم يعطه أو دعاه فلم يجبه، أو تضرّع إليه فلم كشف ما به. وكان العباس رضي الله عنه يقول: الناس لصاحب المال ألزم من الشعاع للشمس وهو عندهم أعذب من ماء، وأرفع من السماء، وأحلى من الشهد، وأزكى من الورد، خطؤه صواب، وسيئاته حسنات، وقوله مقبول، يرفع جلسه ولا يملّ حديثه. والمفلس عند الناس أكذب من لمعان السراب، وأثقل من الرصاص، لا يسلم عليه إن قدم، لا يُسأل عنه إن غاب، إن حضر ازدروه، وإن غاب شتموه، وإن غضب صفعوه، مصافحته تنقض الوضوء، وقراءته طع الصلاة. وقال بعضهم: طلبت الراحة لنفسي فلم أجد لها أروح من ترك ما لا يعنيها، وتوحشت في البرية فلم أر حشة أقر من قرين السوء، وشهدت الزحوف وغالبت الأقران فلم أر قريناً أغلب للرجل من المرأة السوء، ونظرت إلى ل ما يذل القوي ويكسره فلم أر شيئاً أذل له ولا أكسر من الفاقة. قال الشاعر:

وكــلُّ مقــلٍّ حيــنَ يغــدُو لحــاجــةٍ ... إلــى كــلِّ مــا يلقــى مــن النــاس مــذنــبُ
وكــانَــتْ بنــو عمــي يقــولُــونَ مــرحبــا ... فلمــا رأونــي معــدَمــاً مــات مــرحــبُ

وقال آخر:

المــالُ يــرفــعُ سقفــاً لا عمــادَ لــه ... والفقــر يهــدمُ بيــتَ العــزِّ والشــرفِ

وقال آخر:

---

١) سورة: الكهف، الآية: ٤٦.
١) تذر: تترك.
٢) الأواقي: حمتك الحاميات.

جروحُ الليالي ما لهنَّ طبيبُ ... وعيشُ الفتى بالفقر ليس يطيبُ
وحسبُك أن المرءَ في حالِ فقرِهِ ... تحمّقُهِ الأقوام وهو لبيبُ[1]
ومن يغترِزْ بالحادثات وصرفها ... يَبِتْ وهو مغلوبُ الفؤاد سليبُ
وما ضرَّني أنْ قالَ أخطأتَ جاهلٌ ... إذا قال كلُّ الناس أنت مصيبُ

وقال آخر:

الفقرُ يُزري[2] بأقوامٍ ذوي حسبٍ ... وقد يسوِّدُ غيرَ السيِّد المالُ

وقال آخر:

لعَمْرُكَ إن المالَ قد يجعلُ الفتى ... سنيًّا وإن الفقرَ بالمرء قد يُزري
وما رَفْعُ النفسِ الدنيئةِ كالغنى ... ولا وَضْعُ النفسِ النفيسةِ كالفقرِ

وقال آخر:

إذا قلَّ مالُ المرءِ لانَتْ قناتُهُ ... وهانَ على الأدنى فكيفَ الأباعِدُ

وقال ابن الأحنف:

يمشي الفقيرُ وكلُّ شيءٍ ضدَّهُ ... والناسُ تغلقُ دونَهُ أبوابَهَا
وتراهُ مبغوضاً وليسَ بمذنبٍ ... ويرَى العداوةَ لا يرى أسبابَهَا
حتى الكلابُ إذا رأَتْ ذا ثروَةٍ ... خضعَتْ لدَيْهِ وحَرَّكَتْ أذنابَهَا
وإذا رأَتْ يوماً فقيراً عابراً ... نَبَحَتْ عليه وكشَّرَتْ أنيابَهَا

وقال آخر:

فقرُ الفتى يُذهِبُ أنوارَه ... مثلَ اصفرارِ الشمس عند المغيبِ
والله ما الإنسانُ في قومِهِ ... إذا بليَ بالفقرِ إلا غريبُ

وقال آخر:

إن الدراهم في المواطنِ كلِّها ... تكسُو الرجالَ مهابةً وجمالا
فهي اللسانُ لمن أراد فصاحةً ... وهي السلاحُ لمن أراد قتالا

وقال آخر:

ما الناسُ إلا مَعَ الدنيا وصاحِبِها ... فكلما انقلَبَتْ يوماً بهِ انقلبوا
يعظِّمُون أخا الدنيا فإنْ وثَبَتْ ... يوماً عليه بما لا يشتهي وثبوا

وقال بعض الفرس: من زعم أنه لا يحب المال فهو عندي كذاب:

وقال الكناني:

---

(١) لبيب: يظنونه أحمقَ وهو لبيب.

(٢) يزري: يشين.

أصبحَـتِ الـدنيـا لنـا عبـرةً فـالحمـدُ لله علـى ذلكـا
قـد أجمَـعَ النـاسَ علـى ذَمِّهـا ومـا أرى منهـم لهـا تـاركـا

وقال الزمخشري:

وإذا رأيـتَ صعـوبـةً فـي مطلـبٍ فـاحمِـلْ صعـوبتَـهُ علـى الـدينـارِ
وابعَثْـه فيمـا تشتهيـه فـإنَّـهُ حَجَـرٌ يليـنُ قـوَّة الأحجـارِ

قال الثوري رحمه الله تعالى: لئن اخلف عشرة آلاف درهم يحاسبني الله عليها أحب إليّ من أن احتاج إلى لئيم.
وفي هذا المعنى قال الشاعر:

احفَـظْ عُـرَى مـالِـكَ تَحْـظَ بـه ولا تُفَـرِّطْ فيـه تَبْـقَ ذليـلْ
وإن يقـولـوا بـاخـلٌ بـالعَطـا فـالبخـلُ خيـرٌ مـن سـؤال البخيـلْ
واحفَـظْ علـى نفسِـك مـن زَلَّـةٍ يُـرى عـزيـز القـوم فيهـا ذليـلْ

وأما ما جاء في الاحتراز على الأموال: فقد قالوا: ينبغي لصاحب المال أن يحترز ويحتفظ عليه من المطمعين والمبرطحين[1] والمحترفين الموهمين والمتنمسين[2].

فأما المطمعون؛ فهم الذين يتلقون أصحاب الأموال بالبشرى والإكرام والإعظام إلى أن يأنسوا بهم ويعرفوهم بالمشاهدة، وربما قضوا ما قدروا عليه من حوائجهم إلى أن يألفوهم ويحصل بينهم سبب الصداقة، ثم إن أحدهم يذكر لصاحب المال في معرض المقال أنه كسب فائدة كثيرة في معيشته، ثم يمشي معه في الحديث إلى أن يقول إني فكرت فيما عليك من المؤن والنفقات، وهذا أمر يعود ضرره في المستقبل إن لم تساعد بالمكاسب، وغرضي التقرّب إليك ونصحك وخدمتك وأريد أن أوجه إليك فائدة من المتجر بشرط أن لا أضع يدي على مال، بل يكون مالك تحت يدك، أو تحت يد أحد من جهتك، ويخرج له في صفة الناصحين المشفقين فإذا أجابه إلى ذلك كان أمره معه على قسمين، إن ائتمنه هو جعل المال بيده، أعطاه اليسير منه على صفة أنه من الربح وطاول به الأوقات ودفع إليه في المدّة لطويلة الشيء اليسير من ماله ثم يحتجّ عليه ببعض الآفات ويدعي الخسارة، فإن لزمه صاحب المال، قابحه وبرطل من جملة المال صاحب جاه فيدفعه ويقول هذا رباني[3]، فإن روعي صاحب المال وفق بينهما، على أن يكتب عليه بقية المال وثيقة فلا يستوفي ما فيها إلاّ في الآخرة، وإن هو لم يأتمنه وعوّل أن يكون القبض بيده والمتاع مخزوناً لديه راطأ[4] عليه البائعين والمشترين وحصل لنفسه وعمل ما يقول به، فإن حصل لصاحب المال أدنى ربح أو همه أن مفاتيح الأرزاق بيده، وإن كسد المشتري، أو رخص أحال الأمر على الأقدار وقال ليس لي علم بالغيب.

ومن أشد المطمعين، المعترضون لصنعة الكيمياء وهم الطماعون المطمعون في عمل الذهب والفضة من غير معدنهما، فيجب أن يحذر التقرّب منهم والاستماع لهم في شيء من حديثهم فإن كذبهم ظاهر وذلك أنهم يوهمون

١) المبرطحين: سيأتي تفصيل شرحهما وهما من أصناف المحتالين في حيازة المال.
٢) المتنمسين: سيأتي تفصيل شرحهما وهم من أصناف المحتالين في حيازة المال.
٣) رباني: منسوب إلى الربا.
٤) واطأ: شاركهم العزم.

الغير أنهم ينيلونهم خيراً ويطلعونهم على صنعتهم ابتداء منهم لا لحاجة، وهذا يستحيل ويحتجون بأن ما يلجئهم إلى ذلك عدم الإمكان وتعذر المكان، فمنهم من يكون شوقه إلى أن يدخل إلى مكان ويترك عنه عدة لها قيمة، فيأخذها وينسحب، ومنهم من يشترط أن عمله لا ينتهي إلى مدة، فيقنع في تلك المدة بالأكل غدوة وعشية، وسبيله بعد ذلك إن كان معروفاً قال فسد عليّ العمل من جهة كيت وكيت، ويقول للذي ينفق عليه هل لك في المعاودة، فإن حمله الطمع ووافقه كان هذا له أتمّ غرض، ثم يحتال آخر المدة على الفراق بأيّ سبب كان، وإن كان منكوراً غافل صاحب المكان وخارج هارباً.

ومن المطمعين، قوم يجعلون في الجبال أمارات من ردم وحجر ويأتون إلى أصحاب الأموال ويقولون: إنا نعرف علم كنز فيه من الأمارات كيت وكيت، ثم يوقفونهم على ورقة متصنعة ويقولون نريد أن تأخذ لنا عدة وتنفق علينا ومهما حصل من فضل الله تعالى لنا ولك، فيوافقهم على ذلك ويوطن نفسه على أن المادة تكون قريبة فيعملون يوماً أو يومين، فيظهر لهم أكثر الأمارات فيزداد طمعاً ويعتقد الصحة، ثم يستدرجونه إلى أن ينفق عليهم ما شاء الله تعالى ويكون آخر أمرهم كصاحب الكيمياء، وإن كانوا منكورين ورغبتهم الطمعة في قماشه أو في العدة التي معه فربما قتلوه هناك لأجل ذلك ومضوا فهذا أمر المطمعين.

وأما المبرطحون؛ فهم من الخونة والناس بهم أكثر غرراً[1]، وذلك أنهم إذا ندب صاحب المال أحداً منهم لشراء حاجة سارع فيها، واحتاط في جودتها، وتوفير كيلها أو وزنها أو ذرعها ووضع من أصل ثمنها شيئاً وزنه من عنده، سراً، حتى يبيض وجهه عند صاحب المال، ويعتقد نصحه وأمانته ونجح مساعيه وكذلك إن ندبه لشيء يبيعه استظهر واستجاد النقد ولا يزال هكذا دأبه حتى يلقي مقاليد أمره إليه فيستعطفه ويفوز به ثم يغير الحال الأول في الباطن فينبغي لصاحب المال أن لا يغفل عنه.

وأما المحترفون الموهمون؛ فهم الذين يتعرّضون لذوي الأموال فيظهرون لهم الغنى والكفاية ويباسطونهم مباسطة الأصدقاء، ويعتمدون جودة اللباس، ويستعملون كثيراً من الطيب، ثم إن أحدهم يذكر أنه يربح الأرباح العظيمة فيما يعانيه، ويذكر ذلك مع الغير، ولا يزال كذلك حتى يثبت ويستقر في ذهن صاحب المال أنه يكتسب في كل سنة الجمل الكثيرة من المال، وأنه لا يبالي إذا أنفق، أو أكل، أو شرب، فتشره[2] نفس صاحب المال لذلك فيقول له على سبيل المداعبة: يا فلان، تريد الدنيا كلها لنفسك لم لا تشركنا في متاجرك هذه، وأرباحك، فيقول له: أنت جبان يعزّ عليك إخراج الدينار، وتظن أنك إن أظهرته خطف منك، ولا تدري أنه مثل البازي إن أرسلته أكل وأطعمك، وإن أمسكته لم يصد شيئاً، واحتجت إلى أن تطعمه وإلا مات، وأنا والله لو كان عندي علم أنك تنبسط لهذا، كنت فعلت معك خيراً كثيراً ولكن ما كان إلا هكذا، وما كان لا كلام فيه، والعمل في المستأنف، فيشكره صاحب المال ويسأله أخذ المال فيمطله بتسليمه فيزداد فيه رغبة إلى أن يسلمه إليه فيكون حاله كحال المطمع إذا صار المال تحت يده.

وأما المتنمسون؛ فهم أهل الرياء المظهرون التعفف والنسك، ومجانبة الحرام، ومواظبة الصلاة والصيام لكي

---

(١) غرراً: انخداعاً.

(٢) فتشره: تصاب بالطمع.

يشتهر ذكرهم عند الخاص والعام، ثم يلقون ذوي الأموال بالبشر والإكرام والتلطف في المقال، ويمشون إلى أبواب الملوك على صفة التهاني بالأعياد، وربما يأتي معه بأحد من الأولاد ويظهرون النزاهة والغني، ويجعلون الدين سلماً إلى الدنيا، وأكثر أغراضهم أن تودع عندهم الأموال، وتفوض إليهم الوصايا، ويجلهم[١] العوام، وتقبل شهادتهم الحكام، وتندبهم الملوك إلى الوصايا والأموال وهؤلاء أشرّ من اللصوص والقطاع، وذلك أن شهرة اللصوص والقطاع تدعو إلى الاحتراز منهم وتشبه هؤلاء بأهل الخير يحمل الناس على الاغترار[٢] بهم. قال الشاعر:

صلّــى وصــامَ لأمــرٍ كــان أمَلَــهُ ... حتـى حـوَاهُ فمـا صلّـى ولا صـامـا

وقيل: لا فقير أفقر من غنيّ يأمن الفقير: قال الشاعر:

ألـم تـرَ أن الفقـرَ يُـرجى لـه الغنـى ... وأن الغنـى يُخشـى عليـه مـن الفقـرِ

وأوصى بعض الحكماء ولده فقال له: يا بني عليك بطلب العلم وجمع المال فإن الناس طائفتان، خاصة وعامة، فالخاصة تكرمك للعلم، والعامة تكرمك للمال. وقال بعض الحكماء إذا افتقر الرجل اتهمه من كان به وثقاً، وأساء به الظن من كان ظنه به حسناً، ومن نزل به الفقر والفاقة لم يجد بدا من ترك الحياء ومن ذهب حياؤه ذهب بهاؤه، وما من خلة هي للغني مدح إلا وهي للفقير عيب، فإن كان شجاعاً سمي أهوج، وإن كان مؤثراً سمي مفسداً، وإن كان حليماً سمي ضعيفاً، وإن كان وقوراً سمي بليداً، وإن كان لسناً سمي مهذارا، وإن كان صموتاً سمي عيياً. قال ابن كثير:

النــاس أتبــاعُ مَــنْ دامــت لــه نعــمٌ ... والـويـلُ للمرءِ إن زلّـتْ بـه القـدمُ[٣]
المــالُ زيــنٌ ومَــنْ قلّــتْ دراهمُــهُ ... حــيٌّ كمَــنْ مــاتَ إلاّ أنــه صَنَــمُ
لمــا رأيــتُ أخــلاّئي وخــالصَتي ... والكــلُّ مُسْتَتِــرٌ عنّــي ومحتشــمٌ
أبــدوا جفــاءً وإعــراضاً فقلــتُ لهم ... أذنَبْـتُ ذنبـاً فقـالـوا ذنبُـك العـدَمُ[٤]

وكان ابن مقلة وزيراً لبعض الخلفاء فزوّر عنه يهودي كتاباً إلى بلاد الكفار وضمنه أموراً من أسرار الدولة ثم تحيل اليهودي إلى أن وصل الكتاب إلى الخليفة فوقف عليه، وكان عند ابن مقلة حظية هويت هذا اليهودي فأعطته درجاً بخطه، فلم يزل يجتهد حتى حاكى خطه ذلك الذي كان في الدرج، فلما قرأ الخليفة الكتاب أمر بقطع يد ابن مقلة وكان ذلك يوم عرفة وقد لبس خلعة العيد ومضى إلى داره وفي موكبه كل من في الدولة، فلما قطعت يده وأصبح يوم العيد لم يأت أحد إليه ولا توجع له، ثم اتضحت القضية في أثناء النهار للخليفة أنها من جهة اليهودي والجارية فقتلهما شرّ قتلة ثم أرسل إلى ابن مقلة أموالاً كثيرة وخلعا سنية وندم على فعله واعتذر إليه فكتب ابن مقلة على باب داره يقول:

تحــالَــفَ النــاسُ والــزمــانُ ... فحيــثُ كــان الــزمــانُ كــانُــوا

---

١) يجلهم: يحترمهم.
٢) الاغترار: الانخداع.
٣) القدم: عثرت به.
٤) العدم: الفاقة.

عـــاداني الـــدهـــرُ نصـــفَ يـــومٍ فـــانكشـــفَ النـــاسُ لـــي وبـــانُـــوا
يـــا أيهـــا المُعْـــرِضُـــون عنـــي عُـــودُوا فقـــد عـــادَ لـــي الـــزمـــانُ

ثم أقام بقية عمره يكتب بيده اليسرى قال بعضهم:

إنمـــا قـــوّةُ الظهـــورِ النقـــودُ وبهـــا يكمـــلُ الفتـــى ويســـودُ
كـــم كـــريـــمٍ أزرى بـــه الـــدهـــرُ يـــومـــاً ولئيـــمٍ تسعـــى إليـــه الـــوفـــودُ

والأطباء يعلمون أمراضاً من علاجها، اللعب بالدينار، وشرب الأدوية والمساليق[1]، التي يغلى فيها الذهب قال الشاعر:

إحـــرص علـــى الـــدرهـــم والعيـــن تسلـــم مـــن العيلـــة والـــدَّيْـــنِ
فقـــوّة العيـــن بـــإنســـانهـــا[2] وقـــوّة الإنســـان بـــالعَيْـــنِ

واعلَمْ أن القلب عمود البدن، فإذا قوي القلب قوي سائر البدن، وليس له قوة أشد من المال، وبالضد إذ ضعف من الفقر ضعف له البدن.

حكي أن ملكاً رأى شيخاً قد وثب وثبة عظيمة على نهر فتخطاه والشاب يعجز عن ذلك فعجب منه فاستحضر فحادثه في ذلك فأراه ألف دينار مربوطة على وسطه. وقال لقمان لابنه: يا بنيّ شيئان إذا أنت حفظتهما لا تبالي بما صنعت بعدهما، دينك لمعادك، ودرهمك لمعاشك. والكلام في هذا المعنى كثير، وقد اقتصرت منه على النزر اليسير، وقد كان في الناس من يتظاهر بالغنى ويراه مروءة وفخراً، فمن ذلك ما حكي عن أحمد بن طولون أنه دخل يوماً بعض بساتينه فرأى النرجس وقد تفتح زهره فاستحسنه فدعا بغدائه فتغذّى ثم دعا بشرابه فشرب، فلما انتشى قال عليّ بألف مثقال من المسك فنثره على أوراق النرجس.

ولنذكر الآن نبذة من الذخائر والتحف؛ حكى الرشيد بن الزبير في كتابه الملقب بالعجائب والطرف أن أبا الوليد ذكر في كتابه المعروف بأخبار مكة أن رسول الله ﷺ، لما فتح مكة عام الفتح في سنة ثمان من الهجرة، وجد في الجب الذي كان في الكعبة سبعين ألف أوقية من الذهب، مما كان يهدى للبيت قيمتها ألف ألف وتسعمائة ألف وتسعون ألف دينار. وباع زهرة التميمي يوم القادسية منطقة كان قتل صاحبها بثمانين ألف دينار، ولبس سلبه وقيمته خمسمائة ألف وخمسون ألفاً. وأصاب رجل يوم القادسية راية كسرى فعوّض عنها ثلاثين ألف دينار، وكانت قيمتها ألف ألف دينار ومائتي ألف. ووجد المستورد بن ربيعة يوم القادسية إبريق ذهب مرصعاً بالجواهر فلم يدر أحد ما قيمته. فقال رجل من الفرس أنا آخذه بعشرة آلاف دينار ولم يعرف قيمته، فذهب به إلى سعد بن أبي وقاص فأعطاه إياه. وقال لا تبعه إلا بعشرة آلاف دينار فباعه سعد بمائة ألف دينار.

ولما أتتِ التركُ إلى عبد اللّه بن زياد ببخارى في سنة أربع وخمسين كان مع ملكهم امرأته خاتون، فلما هزمهم الله تعالى أعجلوها عن لبس خفها فلبست إحدى فردتيه، ونسيت الأخرى فأصابها المسلمون فقوّمت بمائتي ألف

---

(١) المساليق: مفردها ما يسلق ليشرب.
(٢) بإنسانها: بؤبؤ العين.

دينار. ولما فتح قتيبة بن مسلم بخارى في سنة تسع وثمانين وجد فيها قدور ذهب ينزل إليها بسلالم. ودفع مصعب بن الزبير حين أحسّ بالقتل إلى زياد مولاه فصاً من ياقوت أحمر، وقال له انج به وكان قد قوّم ذلك الفص بألف ألف درهم، فأخذه زياد ورضه بين حجرين وقال والله لا ينتفع به أحد بعد مصعب. وذكر مصعب بن الزبير أن بعض عمال خراسان في ولايته عثر على كنز فوجد فيه حلة كانت لبعض الأكاسرة مصوغة من الذهب، مرصعة بالدّر والجواهر، والياقوت الأحمر والأصفر والزبرجد فحملها إلى مصعب بن الزبير فخرج من قوّمها فبلغت قيمتها ألفي ألف دينار، فقال إلى من أدفعها فقيل إلى نسائك وأهلك. فقال لا بل إلى رجل قدّم عندنا يدا، وأولانا جميلاً، ادع لي عبد اللّه بن أبي دريد فدفعها إليه. ولما صار موجود عماد الدولة في قبضة أمير الجيوش وجد في جملته دملج ذهب فيه جوهرة حمراء كالبيضة وزنها سبعة عشرة مثقالاً، فأنفذها أمير الجيوش إلى المستنصر فقوّمت بتسعين ألف دينار.

ووجد في بستان العباس بن الحسن الوزير مما أعدّ له من آلة الشرب يوم قتل سبعمائة صينية من ذهب وفضة، ووجد له مائة ألف مثقال عنبر. وترك هشام بن عبد الملك بعد موته اثني عشر ألف قميص وشي، وعشرة آلاف تكة حرير وحملت كسوته لما حج على سبعمائة جمل، وترك بعد وفاته أحد عشر ألف ألف دينار. ولم تأت دولة بني العباس إلا وجميع أولاده فقراء لا مال لواحد منهم، وبين الدولة العباسية، ووفاة هشام سبع سنين. ولما قتل الأفضل ابن أمير الجيوش في شهر رمضان سنة خمس وعشرة وخمسمائة خلف بعده مائة ألف ألف دينار، ومن الدراهم مائة وخمسين أردبا وخمسة وسبعين ألف ثوب ديباج، ودواة من الذهب قوّم ما عليها من الجواهر واليواقيت بمائتي ألف دينار، وعشرة بيوت في كل بيت منها مسمار ذهب، قيمته مائة دينار على كل مسمار عمامة لونا، وخلف كعبة عنبر يجعل عليها ثيابه، إذ نزعها، وخلف عشرة صناديق مملوءة من الجوهر الفائق الذي لا يوجد مثله، وخلف خمسمائة صندوق كبار لكسوة حشمه، وخلف من الزبادي الصيني والبلور المحكم، وسق[1] مائة جمل، وخلف عشرة آلاف ملعقة فضة، وثلاثة آلاف ملعقة ذهب، وعشرة آلاف زبدية فضة كبار وصغار، وأربع قدور ذهباً، كل قدر وزنها مائة رطل، وسبعمائة جام[2] ذهباً بفصوص زمرد، وألف خريطة مملوءة دراهم خارجاً عن الأرادب، في كل خريطة عشرة آلاف درهم، وخلف من الخدم والرقيق والخيل والبغال والجمال وحلي النساء ما لا يحصي عدده إلا الله تعالى، وخلف ألف حسكة[3] ذهباً وألفي حسكة فضة وثلاثة آلاف نرجسة ذهباً، وخمسة آلاف نرجسة فضة، وألف صورة ذهباً وألف صورة فضة، منقوشة عمل المغرب، وثلثمائة ثور ذهباً، وأربعة آلاف ثور فضة، وخلف من البسط الرومية والأندلسية ما ملأ به خزائن الإيوان وداخل قصر الزمرد، وخلف من البقر والجاموس والأغنام ما يباع لبنه في كل سنة بثلاثين ألف دينار، وخلف من الحواصل المملوءة من الحبوب ما لا يحصى.

ولما احتوى الناصر على ذخائر قصر العاضد وجد فيه طبلاً كان بالقرب من موضع العاضد محتفظاً له، فلما رأوه سخروا منه، فضرب عليه إنسان فضرط فضحكوا منه، ثم أمسكه آخر وضربه فضرط فضحكوا عليه، فكسروه استهزاء وسخرية ولم يدروا خاصيته، وكانت الفائدة فيه أنه وضع للقولنج[4]، فلما أخبروا بخاصيته ندموا على كسره.

---

(١) وسق: حمولة.
(٢) جام: وعاء زجاجي.
(٣) حسكة: من الأسلحة.
(٤) القولنج: أحد الأمراض الباطنية.

وقد جمعت الملوك من الأموال والذخائر والتحف كنوزاً لا تحصى، وبعد ذلك ماتوا ونفذت ذخائرهم، وفنيت أموالهم فسبحان من يدوم ملكه وبقاؤه. قال بعضهم:

هـبِ الـدنيـا تُقـادُ إليـك عفـواً[1] أليـسَ مصيـرُ ذلـك للـزوالِ

فضمنت أنا هذا البيت وقلت:

أيـا مَـنْ عـاشَ فـي الـدنيـا طـويـلا وأفنـى العمـرَ فـي قيـلٍ وقـالَ
وأتعَـبَ نفسَـهُ فيمـا سيفنـى وجَمْـعٍ مِـن حـرام أو حـلالِ
هـب الـدنيـا تُقـادُ إليـك عفـواً أليـس مصيـرُ ذلـك للـزوالِ

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) عفواً: دون جهد.